ما أجدر هذا الروميَّ أنْ يهديه اللهُ فيكون أخًا مُعينًا ووزيرًا ناصحًا!

كذلك قال مسلمة لنفسه، وقد أوفد إليون إلى قومه ليفاوضهم في شروط التسليم، فبمعونة هذا الرومي يقرع مسلمةُ اليوم أبواب القسطنطينية، ويوشك أن يدخلها غدًا، فيطأ بلاط قيصر، فيجلس على عرش قسطنطين، فيجهر بالأذان على أسوارِها المنيعة، فيؤمَّ جُنده في الصلاة بأيا صوفيا، فينشر كلمة الله من ثمَّةَ في الأرض الكبيرة، فيمضِي قُدُمًا حتى يطأ رُومية، ويجوس في بلاد إفرنسة، وينفُذ إلى الأندلس من المشرِق، ويقِفُ على شاطيء الأقيانوس الأخضر مثل موقف عقبة بن نافع منذ سنين …

إنَّ في الروم لذوِي أعراقٍ طيبة، وإن كان آباؤهم من ذوي المهنة.

ردَّدَ مسلمة هذه العبارة كذلك فيما بينه وبين نفسه، وكأنما ذكر في هذه اللحظة أمه وَرْد ونسبها في بلاد الروم، فحنَّ عِرقٌ إلى عِرق!

واسترسل إليونُ في محادثاته مع القوم، وطالت غيبته، واسترسل مسلمة في أوهامه، وكان الجند في مضاربهم، أو في بيوتهم يُديرون بينهم ألوانًا من الحديث يتَّصِلُ أكثرُها من قريبٍ، أو من بعيد بهذه السِّفارة التي دعا إليها الرومُ، وخفَّ لها إليون، وهشَّ لها مسلمة.

قال ابنُ جُبير العبسي مُغتَبِطًا: أين نحن اليوم، وأين نكون غدًا؟

قال ابن هُبيرَة: وأين تكون إلا وراء مسلمة؟

قال العبسي: فذلك ما أردتُ يا ابن هبيرة!

– اسكت! فوالله ما تعلم ولا يعلم مسلمة ما يُخبِّئه — له ولكم — الغد!

– وتعلم أنت علمَ الغد يا ابن هبيرة، ولا يعلمه مسلمة؟

– قد كان له ذلك لو كان ابن حُرَّة.

هبَّ عتيبة بن النعمان واقفًا قد اخترط سيفه وهو يصيح: أمسِك عليك يا ابن هُبيرة، فإنه لأعرقُ نسبًا، وأعلى أرُومة من كلِّ بني مروان، فإلَّا تكن أمُّه من عبس ومخزوم وأمية فإنها إلى الذروة من بني الأصفر!

قال ابن هبيرة ولم يتحلحل عن موضعه: هوِّن عليك يا ابن أخي؛ فإنك لتقِفُ مني موقفًا يستحي منه أبوك — غفر الله له — وما أردت أن أتنقَّص مسلمة، ولكني أعيبُ عليه أن يركَن إلى رجلٍ من أهل الغدر والنفاق قد باع أمَّتَهُ للعدوِّ، فما أجدره أن يغدر بنا كما غدر بقومه!

– وترى ذلك يغيب عن فطنة مسلمة؟